الصباح الإسلامية

AL-SABAH

www.alsabahpress.com Alsabah Media | السنة الرابعة عشرة | 8 أغسطس 2021 م | 29 ذي الحجة 1442 هـ | الأحد | No. 4040

عامر بن فهيرة رضي الله عنه، ودليلهما اللّيثي عبد الله بن أريقط، مرُّوا على خيمة أمّ معبد الخزاعيّة، وكانت بَرْزَة، جَلْدَة، تحتبي بفناء القبّة، ثمّ تسقي وتطعم، فسألوها لحماً، وتمراً؛ ليشتروه منها، فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك، وكان القوم مُرْملين مُسْنتين، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شاة في كَسْرَ الخيمة، فقال: «ما هذه الشاة يا أمّ معبد؟!» قالت: خلّفها الجَهْد عن الغنم، قال: «فهل بها من لبن؟» قالت: هي أجهد من ذلك. قال: «أتأذنين أن أحلبها؟» قالت: بلى بأبي أنت وأمّي! نعم إن رأيت بها حَلَباً؛ فاحلبها!

فدعا بها رسول الله فمسح بيده ضرعها، وسمّى الله عزّ وجلّ، ودعا لها في شاتها، فتفاجّت عليه، ودَرّت، واجترّت ودعا بإناء يُربِضُ الرَّهط، فحلب فيها ثجّاً؛ حتّى علاه البهاء، ثمّ سقاها حتّى رَوِيت، وسقى أصحابه؛ حتّى رَوُوا، وشرب آخرهم صلى الله عليه وسلم، ثمّ أراضوا، ثمّ حلب فيها ثانياً بعد بدءٍ حتّى ملأ الإناء، ثمّ غادره عندها، ثمّ بايعها، وارتحلوا عنها.

فقلّما لبثت حتّى جاء زوجها أبو معبد، يسوق أعنزاً عجافاً، يتساوَكن هُزالاً ضحىً، مخهنّ قليل، فلمّا رأى أبو معبد اللبن؛ عجب، وقال: من أين لك هذا اللبن يا أمّ معبد! والشاة عازبٌ حيال، ولا حَلوبة في البيت؟ قالت: لا والله! إلا أنه مرّ بنا رجل مبارك، من حاله كذا، وكذا. قال: صفيه لي يا أم معبد! قالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة، أبْلَج الوجه، حسنَ الخَلْق، لم تَعِبْه نُجْلَة، ولم تُزْر به صَعْلة، وسيمٌ، في عينيه دَعَجٌ، وفي أشفاره وَطَف، وفي صوته صَهَل، وفي عنقه سَطَع، وفي لحيته كثاثة، أزجُّ، أقرن، إن صمت؛ فعليه الوقار، وإن تكلم سما وعلاه البهاء، أجمل الناس، وأبهاهم من بعيد، وأحلاهم وأحسنهم من قريب، حُلوُ المنطق، فصْل، لا هذر، ولا نزر كأنّ منطقه خرزات نظم يتحدّرن، رَبْعٌ، لابأس من طول، ولا تقتحمه العين من قصرٍ، غصْنٌ بين غصنين، فهو أنضر الثّلاثة منظراً، وأحسنهم قدراً، له رفقاء يحفّون به؛ إن قال؛ استمعوا لقوله، وإن أمر؛ تبادروا إلى أمره، مَحْفودٌ، محشودٌ، لا عابسٌ، ولا مُفَنّد.

قال أبو معبد: هو والله صاحب قريش؛ الّذي ذكر لنا من أمره ما ذكر بمكّة، ولقد هممت أن أصحبه، ولأفعلنّ إن وجدت إلى ذلك سبيلاً. فأصبح صوتٌ بمكّة عالياً، يسمعون الصوت، ولا يدرون مَنْ صاحبه، وهو يقول:

جَزَى اللهُ رَبُّ النّاسِ خَيْرَ جزائه
رَفِيقَيْنِ قَالا خَيْمَتَيْ أمّ مَعْبَدِ
هُمَا نَزَلا بالبِرّ ثُمّ ترَوّحا
فَقَدْ فازَ مَنْ أمْسَى رَفِيقَ مُحَمّدِ
فيا لَقُصَيّ ما زَوَى الله عَنكُمُ
بِهِ مِنْ فِعَالٍ لا تُجَارَى وسُؤْدُدِ
لِيَهْنِ بَنِي كَعْبٍ مَكَانُ فَتَاتِهِمْ
وَمَقْعَدُهَا لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَرْصَدِ
سَلُوا أخْتَكُمْ عَنْ شاتِهَا وإنائِهَا
فَإنّكُمْ إنْ تَسْأَلُوا الشّاةَ تَشْهَدِ
دَعَاهَا بِشَاةٍ حَائِلٍ فَتَحَلّبَتْ
عَلَيْهِ صَرِيحاً ضَرّةُ الشّاةِ مُزْبِدِ
فَغَادَرَهَا رَهْناً لَدَيْهَا لِحَالِبٍ
يُرَدِّدُهَا في مَصْدَرٍ ثُمّ مَوْرِدِ

سراقة بن مالك يلاحق رسول الله صلى الله عليه وسلم

أعلنت قريش في نوادي مكّة: أنّه من يأت بالنّبيّ ، حيّاً، أو ميتاً، فله مئة ناقة، وانتشر هذا الخبر عند قبائل الأعراب، الّذين في ضواحي مكّة، وطمع سراقة بن مالك بن جُعْشم في نيل الكسب، الّذي أعدّته قريش لمن يأتي برسول الله صلى الله عليه وسلم، فأجهد نفسه لينال ذلك، ولكن الله بقدرته الّتي لا يغلبها غالب جعله يرجع مدافعاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدما كان جاهداً عليه.

قال ابن شهاب: وأخبرني عبد الرّحمن بن مالك المُدْلِجيُّ - وهو ابن أخي سراقة بن مالك بن جُعْشم -: أنّ أباه أخبره، أنّه سمع سراقة بن جُعْشم يقول: جاءنا رُسُلُ كفّار قريش، يجعلون في رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر دية كل واحد منهما، لمن قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلسٍ من مجالس قومي بني مُدْلج؛ إذ أقبل رجلٌ منهم حتّى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سراقة! إنّي قد رأيت آنفاً أسْودة بالسّاحل، أراها محمّداً وأصحابه، قال سراقة: فعرفتُ: أنّهم هم، فقلت له: إنّهم ليسوا بهم، ولكنّك رأيتَ فلاناً، وفلاناً، انطلقوا بأعيننا، ثمّ لبثتُ في المجلس ساعة، ثمّ قمتُ، فدخلتُ، فأمرتُ جاريتي أن تَخْرُجَ بفرسي - وهو من وراء أكمة- فتَحْبِسَها عليّ، وأخذتُ رُمْحي، فخرجت به من ظَهْر البيت، فخَططتُ بِزُجّه الأرض، وخَفَضتُ عاليه، حتّى أتيتُ فرسي فركبتُها، فرفعتُها (أيْ: أسرعت بها السّير) تُقَرّب بي، حتّى دنوت منهم، فَعَثَرت بي فرسي، فخررتُ عنها، فقمت، فَأهويت يدي إلى كنانتي، فاستخرجت منها الأزلام، فاستقسمت بها: أضُرُّهم، أم لا؟ فخرج الّذي أكره، فركبت فرسي، وعصيت الأزلام، تُقَرّب بي، حتّى إذا سمعت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وَهو لا يلتفتُ، وأبو بكر يكثر الالتفات، سَاخَتْ يدا فرسي في الأرض؛ حتّى بلغتا الرُّكبتين، فخررتُ عنها، ثمّ زجرتها، فنهضتْ، فلم تكد تُخْرِجُ يديها، فلمّا استوت قائمة؛ إذا لأثر يديها عُثانساطعٌ في السّماء مَثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام، فخرج الّذي أكره، فناديتهم بالأمان، فوقفوا، فركبت فرسي؛ حتّى جئتُهم، ووقع في نفسي حين لَقيتُ ما لَقيتُ من الحبس عنهم، أن سَيظهرُ أمرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت له: إنّ قومك قد جعلوا فيك الدّية، وأخبرتهم أخبار ما يريد النّاس بهم، وعرضت عليهم الزّاد والمتاع، فلم يَرْزأني، ولم يسألاني، إلا أن قال: أخْفِ عنا، فسألته أن يكتب لي كتابَ أمن، فأمرَ عامرَ بن فهيرة، فكتب في رَقعةٍ من أدَم، ثمّ مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكانّ ممّا اشتهر عند النّاس من أمر سراقة، ما ذكره ابن عبد البرّ، وابن حجر، وغيرهما. قال ابن عبد البرّ: روى سفيان بن عيينة عن أبي موسى، عن الحسن: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لسراقة بن مالك: «كيف بك إذا لبستَ سواري كسرى؟!» قال: فلمّا أتيَ عمرُ بسواري كسرى، ومِنْطَقته وتاجه؛ دعا سراقة بن مالك، فألبسه إيّاها، وكان سراقة رجلاً أزَبّ كثير شعر السّاعدين، وقال له: ارفع يديك، فقال: الله أكبر، الحمد لله الّذي سلبهما كسرى بن هُرْمز، الّذي كان يقول: أنا ربُّ النّاس، وألبسهما سراقة بن مالك بن جُعْشم أعرابيّاً من بني مُدْلِج، ورفع بها عمر صوته، ثمّ أركب سُراقة، وطَوّف به المدينة، والنّاس حوله، وهو يرفع عقيرته مردداً قول الفاروق: الله أكبر، الحمد لله الّذي سلبهما كسرى بن هرمز، وألبسهما سراقة بن جُعْشم أعرابيًّا من بني مُدْلِج.

سبحان مقلّب القلوب

كان سراقة في بداية أمره يريد القبض على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتسليمه لزعماء مكّة؛ لينال مئة ناقة، وإذا بالأمور تنقلب رأساً على عَقب، ويصبح يردُّ الطلب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجعل لا يلقى أحداً من الطلب إلا ردّه، قائلاً: كُفيتم هذا الوجه، فلمّا اطمأنّ إلى أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم وصل إلى المدينة المنوّرة، جعل سراقة يقصّ ما كان من قصّته، وقصّة فرسه، واشتهر هذا عنه، وتناقلته الألسنة؛ حتّى امتلأت به نوادي مكّة، فخاف رؤساء قريش أن يكون ذلك سبباً لإسلام بعض أهل مكّة، وكان سراقة أمير بني مُدْلِج، ورئيسهم، فكتب أبو جهل إليهم:

بني مُدْلِجٍ إنّي أخاف سَفِيهَكُمْ
سراقةَ مستغوٍ لِنَصْرِ مُحَمّدِ
عَلَيْكُمْ به ألاّ يُفَرّقَ جَمْعَكُمْ
فَيُصْبِحَ شَتّى بَعْدَ عِزٍّ وسُؤْدُدِ

فقال سراقة يردُّ على أبي جهل:

أبا حَكَمِ اللاتِ لَوْ كُنتَ شَاهِداً
لأمرِ جَوَادِي إذْ تسيخُ قَوائِمُهْ
عَجِبْتَ وَلَمْ تَشْكُكْ بِأنّ مُحَمّداً
رَسُولٌ بِبُرْهَانٍ فَمَنْ ذَا يُقَاوِمُهْ
عَلَيْكَ فَكُفّ القَوْمَ عَنْهُ فإنّني
أرَى أمْرَهُ يَوْماً سَتَبْدُو مَعالِمُهْ
بِأمْرٍ تَوَدّ النّاسُ فِيهِ بِأسْرِهِمْ
بِأنّ جَمِيعَ النّاسِ طُرّاً مُسَالِمُهْ

استقبال الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم

«ولمّا سمع المسلمون بالمدينة مَخْرَجَ رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكّة، فكانوا يغدون كلّ غداة إلى الحرّة فينتظرونه، حتّى يردّهم حرُّ الظّهيرة، فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم، فلمّا أوَوْا إلى بيوتهم؛ أوفى رجل من يهود على أُطُم من آطامهم، لأمر ينظر إليه، فبصُرَ برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابهُ مُبَيّضين، يزول بهم السّرابُ، فلم يملك اليهوديُّ أن قال بأعلى صوته: يا معاشرَ العرب! هذا جَدُّكم الّذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السِّلاح، فتلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهر الحرّة، فعدل بهم ذات اليمين، حتّى نَزَل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الإثنين من شهر ربيع الأوّل، فقام أبو بكر للنّاس، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم صامتاً، فطفق من جاء من الأنصار - ممّن لم يَرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم - يُحَيّي أبا بكر، حتّى أصابت الشّمْسُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فأقبل أبوُ بكر حتّى ظلّل عليه بردائه، فعرف النّاس رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك، فلبث رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني عمرو بن عوف بضعَ عَشْرَةَ ليلةً، وأسّسَ المسجدُ الذي أُسّسَ على التّقوى، وصلّى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثمّ ركب راحلته».

وبعد أن أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم المدّة الّتي مكثها بقُباء، وأراد أن يدخل المدينة؛ «بعث إلى الأنصار» فجاؤوا إلى نبيّ الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر، فسلّموا عليهما، وقالوا: اركبا آمنَيْنِ مُطاعَيْنِ، فركب نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر، وحَفّوا دونَهما بالسّلاح». وعند وصوله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، قيل في المدينة: «جاء نبيُّ الله، جاء نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم، فأشرفوا ينظرون، ويقولون: جاء نبيُّ الله».

فكان يوم فرحٍ وابتهاج، لم ترَ المدينة يوماً مثله، ولبس النّاس أحسن ملابسهمْ كأنّهم في يوم عيد، ولقد كان حقّاً يوم عيد؛ لأنّه اليوم الّذي انتقل فيه الإسلام من ذلك الحيّز الضّيّق في مكّة، إلى رحابة الانطلاق والانتشار، بهذه البقعة المباركة (المدينة)، ومنها إلى سائر بقاع الأرض، لقد أحسّ أهل المدينة بالفضل الّذي حباهم الله به، وبالشّرف الّذي اختصّهم به أيضاً، فقد صارت بلدتهم موطناً لإيواء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصحابته المهاجرين، ثم لنصرة الإسلام، كما أصبحت موطناً للنّظام الإسلاميّ العامّ، والتّفصيليّ بكلّ مقوّماته، ولذلك خرج أهلَ المدينة يهلّلون في فرحٍ وابتهاج، ويقولون: يا رسول الله! يا محمد! يا رسولَ الله! روىَ الإمام مُسلم بسنده، قال: «عندما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة؛ صعد الرّجال، والنّساء فوق البيوت، وتفرّق الغلمان، والخدم في الطّرق، ينادونَ: يا محمد! يا رسول الله! يا مَحمّد! يا رسول الله!!».

وبعد هذا الاستقبال الجماهيريّ العظيم؛ الّذي لم يرد مثله في تاريخ الإنسانيّة سار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتّى نزل في دار أبي أيوب الأنصاريّ رضي الله عنه، فعن أنس رضي الله عنه في حديث الهجرة الطّويل: «فأقبل يسيرُ حتّى نزل جانب دار أبي أيوب، فإنّه ليُحَدّثُ أهله؛ إذ سمع به عبد الله بن سَلام، وهو في نخل لأهله يَخْتَرف لهم، فعجّل أن يضع الّذي يَخْتَرف لهم فيها، فجاء وهي معه، فسمع من نبيّ الله صلى الله عليه وسلم، ثمّ رجع إلى أهله، فقال نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم: أيّ بيوت أهلنا أقرب؟ فقال أبو أيوب: أنا يا نبيّ الله! هذه داري، وهذا بابي، قال: فانطلق فهيئ لنا مقيلاً...»، ثمّ نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي أيوب حتّى بنى مسجده، ومساكنه.

وبهذا قد تمّت هجرته صلى الله عليه وسلم، وهجرة أصحابه رضي الله عنهم؛ ولم تنته الهجرة بأهدافها، وغاياتها، بل بدأت بعد وصول رسول الله صلى الله عليه وسلم سالماً إلى المدينة، وبدأت معها رحلة المتاعب، والمصاعب، والتّحدّيات، فتغلّب عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم للوصول للمستقبل الباهر للأمّة، والدّولة الإسلاميّة؛ الّتي استطاعت أن تصنع حضارة إنسانيّة رائعة، على أسس من الإيمان، والتّقوى، والإحسان، والعدل بعد أن تغلّبت على أقوى دولتين كانتا تحكمان العالم، وهما: دولة الفرس، ودولة الرُّوم.